ترجمات

# في ثقافة سوء الفهم: الإسلام والغرب

• كوامي أنتوني •

جامعة برينستون، الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة:

فهمي الورغمي

مركز نهوض للبحوث والدراسات
NOHOUDH CENTER FOR RESEARCHS AND STUDIES

جميع الحقوق محفوظة ٢٠١٩

All rights reserved © 2019

# في ثقافة سوء الفهم:
# الإسلام والغرب [1]


## • كوامي أنتوني [2] •

جامعة برينستون، الولايات المتحدة الأمريكية


ترجمة:

فهمي الورغمي

---

(١) قُدِّمت هذه المقالة في ندوات إعادة تشكيل الحوار، في إسطنبول عام ٢٠١١، ضمن المؤتمر المنعقد في جامعة إسطنبول بيلجي في الفترة (من ١٩ إلى ٢٤ مايو ٢٠١١). وقد نُشرت النسخة النهائية لمقال كوامي أنتوني أبياه في: الفلسفة والنقد الاجتماعي، المجلد ٣٨، العدد ٤-٥، مايو ٢٠١٢، منشورات سيج المحدودة (لوس أنجلوس، لندن، نيودلهي، سنغافورة، واشنطن العاصمة)، جميع الحقوق محفوظة، ص٤٢٥- ٤٣٤, عدد خاص: "التغلب على فخ الاستياء" إعادة تشكيل حوار الحضارات في حلقات إسطنبول الدراسية، ٢٠١١، تحرير: أليساندرو فيرارا، وفولكر كول، وديفيد راسموسن. وهذا رابط المقال الأصلي:
https://www.resetdoc.org/story/misunderstanding-cultures-islam-and-the-west/

(١) فيلسوف أمريكي ولد ببريطانيا سنة ١٩٥٤، تتمحور أعماله حول الدراسات الثقافية وفلسفة اللغات والعقل والتاريخ الفكري. حصل على الوسام الوطني الأمريكي للعلوم الإنسانية (عام ٢٠١١)، وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعة هارفارد (عام ٢٠١٢).

## مقدمة المترجم:

- لطالما كان البحر الأبيض المتوسط منطقةً استراتيجيةً لجميع الحضارات التي تمركزت على ضفافه منذ فجر التاريخ، حال هذا المقال الذي يبرز فيه الفيلسوف الأمريكي ذو الجذور الكينية في جامعة هارفارد الأمريكية كوامي أنتوني أبياه مدى أهمية الحوض المتوسطي باعتباره نقطةَ اتصالٍ تربط الشرق بالغرب والجنوب بالشمال. وفي هذا الإطار، يذكر العلاقات التي جمعت كلًّا من أوروبا والإسلام في الفترة القروسطية التي اتسمت بالحروب والعلاقات العدائية المتبادلة.

- لكن رغم ذلك، يدافع الكاتب في مقالته عن عالميَّة الحضارة، وأنها نتاج إنسانيٌّ بحت وليست حكرًا على فئةٍ أو مجموعةٍ دون غيرها في نقدٍ واضحٍ للمركزية الغربية وخاصةً الأوروبية، أوروبا التي حسب رأيه ما كانت لتكون دون ما أخذته وما جلبه لها المسلمون من علومٍ ومعارفَ متعدِّدة.

- هذا، ويدعو الفيلسوف من خلال استقرائه لتاريخ المتوسط إلى إدراك الفكرة القائلة بأن جميع البشر يبنون حضارةً واحدة، وهي الحضارة الإنسانية، ولكن كل يساهم من خلال ثقافته التي تميزه وبها يتميَّز عن غيره.

- يمثِّل التواصل والخطاب أرقى الأساليب التي انتهى إليها الإنسان في محاولة سَبْر أغوار عالمه ومستقبله، والحضارة هي الوريث الفعلي لهذا العمل الإنساني الخالص. وقد لعبت الجغرافيا دورًا محوريًّا في بلورة ونشأة العديد من الممالك والإمبراطوريات التي تفاعلت فيما بينها في سيرورة متواصلة من السلم والحرب.

- من هذا المنطلق يبحث هذا المقال في أُسس العلاقة التي جمعت كلًّا من الحضارتين الإسلامية والغربية على مدى فتراتٍ زمنية متفرِّقة منذ ظهور الإسلام حتى الوقت الراهن. والكاتب من المهتمين بالعلاقات البين-حضارية خاصةً في حوض البحر الأبيض المتوسط. وما يدعو لترجمة هذا المقال هو التطورات الحاصلة بحوض المتوسط، خاصةً منذ اندلاع ثورات الربيع العربي والأزمات الإنسانية التي حلَّت ببعض البلدان العربية والإسلامية عمومًا من تهجير قسريٍّ وحروبٍ أهلية.

- في خضمِّ كل هذا مثَّلت أوروبا قبلةً لسكان جنوب المتوسط، وعادت بذلك الذكريات للوراء بالنسبة إلى الكثيرين، فأوروبا في الضمير الجمعي الإسلامي هي أرض الأجداد والجهاد، حيث سكن أهل الأندلس، وهي أرض لطالما كانت وجهة المهاجرين والفاتحين فيما قبل.

- هذا الخليط الأنثروبولوجي والسوسيولوجي الطريف هو ما جعل الكثيرين - ومنهم كوامي أنتوني أبياه - يراجعون أطروحاتهم حول مدى تشعُّب العلاقة بين حضارتين كبيرتين. والأهمُّ من ذلك، هو مدى سوء الفهم الحاصل لكلٍّ منهما عن الآخر.

- وهنا تكْمُن أهمية هذا المقال الذي يبتدئ تدريجيًّا في تحليل الأحداث الكبرى التي جمعت كلًّا من الحضارتين الإسلامية والغربية ليصل بنا إلى الفكرة التي ترى في الأندلس - وهي نتاج تلاقح الإسلام بالغرب - ذروة ما وصلت إليه البشرية في القرون الوسطى.

- يطرح المقال العديد من التساؤلات الحارقة، مثل السبب وراء عدم وجود الروح الإبداعية نفسها بين الحضارتين فيما يلي الفترة القروسطية، ويخلص إلى أن ذلك عائدٌ إلى عدَّة أسباب، لعل أهمها الهيمنة والتوسُّع الأوروبي خاصةً بعد القرن التاسع عشر في مقابل انحسار الدور الريادي للعرب خاصةً والمسلمين عامةً.

- هذا، ويمثِّل المقال نبذةً عمَّا يحدث من تطوراتٍ في علاقة بالبحوث والدراسات التي تعالج الواقع العربي وتاريخه، والذي من شأن القراء العرب متابعته، خاصةً ونحن في عصر لا مجال فيه للتوقف أو التحسُّر على الماضي.

## المقال المترجم:

لقد أخذت على عاتقي مهمتين: الأولى وظيفة الفيلسوف، وتتمثَّل في محاولة بيان بعض المصاعب المتعلِّقة بفكرة الغرب. والثانية تاريخية: تهدف إلى تذكيرنا ببداية ظهور الفكرة القائلة بأن الغرب والإسلام متضادان. ولأنه تبيَّن أن التاريخ جعل من المهمَّة الفلسفية أسهل، فسوف أستهلُّ حديثي من هناك.

بالنسبة إلى هيرودوت، فقد وقع تقسيم العالم - مثل خليج قيصر - إلى ثلاث مناطق: فمن جهة الشرق توجد آسيا، ومن ناحية الجنوب كان هناك قارة تُسمَّى ليبيا، أما الباقي فأوروبا. لكن من المؤكَّد أن القدماء كانوا على يقينٍ بأن الناس والسلع والأفكار كانت تنتقل بين القارات دون أيِّ عوائق.

وفي الواقع، اعترف هيرودوت بأنه في حيرةٍ من أمره حين تساءل: "لماذا أطلقت ثلاثة أسماء أنثوية مميزة على ما هو في الحقيقة كتلة واحدة من الأرض؟"[1]. وبالرغم من حيرته هذه، فقد مثلت القارات الثلاث - التي كانت ملكًا للإغريق وورثتهم الرومان - أهمَّ التقسيمات الجغرافية في العالم. وقد تطلَّب ذلك قفزة نوعية في الفكر للانتقال من التمييز بين القارات إلى التفكير في سكانها كشعبٍ واحد. ولم يكن ليخطر على بال هيرودوت أن لديه شيئًا مميزًا مشتركًا مع سكان بلاد فارس، شيئًا قد جمع بينه وبينهم على النقيض من كل سكان أوروبا.

وُلِدَ المؤرخ اليوناني هيرودوت على بُعْد 500 ميل نحو الجنوب من هنا في هاليكارناسوس[٢]. لكن كونه قد ترعرع في آسيا الصغرى لم يجعل منه آسيويًّا؛ إذ ظلَّ دائمًا يونانيًّا. فكان السَّلتيون[٣] - سكان الشمال الذين لا يعرفهم إلا القليل - أكثر غرابةً عليه من الفرس أو المصريين، الذين كان قد خبرهم كثيرًا. بحيث يمكنك أن تمتلك "هوية" أوروبا وأفريقيا وآسيا دون التفكير في الأوروبيين والأفارقة والآسيويين باعتبارهم أنواعًا بشرية.

---

(1) Herodotus The Histories John Marincola ed. Aubrey de Sèlincourt trans. (London & New York: Penguin, 1972): 254.

(٢) اليوم هيبودروم: وهي مدينة تطلُّ على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في المنطقة الجنوبية الغربية من تركيا.

(٣) هم مجموعة عرقية أوروبية، عاصروا فترة الجمهورية الرومانية (٥٠٩-٢٧ ق.م)، ويستخدمون اللغة الكلتية التي تعتبر فرعًا من اللغات الهندية الأوروبية. وتشير المصادر الأثرية والتاريخية إلى أن أقصى امتدادٍ للكلت أو السَّلت كان في القرون السابقة للميلاد، وأنهم وُجدوا أيضًا في شرق أوروبا وآسيا على شكل أقليات. نقلًا عن الموسوعة الحرة (المترجم).

في نهاية الألفية الأولى، ادَّعى ديفيد ليفير ينج لويس[٤] أنه قد طُلِبَ من الأوروبيين عاملان ليباشروا التفكير في أنفسهم - لأول مرة - على أنهم شعبٌ من بين الشعوب كافةً: كان أحدهما هو إنشاء إمبراطورية رومانية مقدَّسة شاسعة على يد الملك المحارب فرانكيز ذي الشعر السميك وصاحب العنق الطويل، والذي يبلغ طوله ستة أقدام وربع البوصة، أو المعروف باسم شارلمان[٥]. والثاني هو التطوُّر الذي حصل في شبه الجزيرة الإيبيرية على الحدود الجنوبية الغربية لمملكته، والمتمثِّل في انتشار الثقافة الإسلامية في إسبانيا التي يطلق عليها العرب: الأندلس. مما ساهم في دفع العديد من القبائل الأوروبية نحو الاتحاد لتصبح شعبًا واحدًا، فإن ما يجمعهم وما يميزهم عن جيرانهم المسلمين كانا أمرين مهمَّيْن.

يتمُّ تعريف الأوروبيين - كغيرهم من الشعوب - تعريفًا بالخُلف. وهذه الآن فكرة مألوفة. لكن لويس يقدِّم اقتراحًا مدهشًا: إذ يجعل من الحضارة التي ورثها الأوروبيون الحديثون والتراث الثقافي للأندلس على الأهمية نفسها من إرث الفرنجة الكاثوليك. فافتراض وجود ذلك الآخر العظيم، يملأ الذات الأوروبية.

شيَّد شارلمان إمبراطوريته الشاسعة ضمن المجال الممتد للمملكتين الفرنجيتين: نيوستريا[٦] في الغرب وعاصمتها باريس، وتقع أوستراسيا[٧] شرقًا. كما قام بإنشاء أديرة تعليم رهبانية، وجلب إليها العلماء من مختلف أنحاء إمبراطوريته وحتى من خارجها. وعلى ما يبدو، فقد سمحت له هذه الإنجازات الثقافية والسياسية بتنصيب نفسه وريثًا لروما في الغرب، ومؤهلًا لاستعادة الإمبراطورية[٨].

---

(٤) (١٩٣٦-): مؤرخ أمريكي، وأستاذ بجامعة يوليوس سيلفر، وأستاذ التاريخ بجامعة نيويورك. فاز مرتين بجائزة بوليتزر للسيرة الذاتية، للجزأين الأول والثاني من سيرته الذاتية لـW. E. B. Du Bois. ، وهو أول مؤلف يفوز بجائزة بوليتزر عن سيرته الذاتية في مجلدين متتاليين في الموضوع نفسه. له العديد من الكتب، منها: بوتقة الله: الإسلام وصنع أوروبا (٥٧٠-١٢١٥) (نيويورك: دبليو دبليو نورتون وشركاؤه، ٢٠٠٨) (المترجم).

(٥) (٧٤٨-٨١٤): الابن الأكبر للملك بيبين الثالث من سلالة الكارولينجيين، وهو ملك الفرنجة وحاكم إمبراطوريتهم بين عامي (٧٦٨- ٨٠٠)، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة بين عامي (٨٠٠- ٨١٤). عُرف بالتنظيم الشديد لإمبراطوريته الممتدَّة، وكذلك علاقته الوطيدة بالبابا ليون الثالث في الفاتيكان في روما، والذي أعلنه إمبراطورًا رومانيًا مقدَّسًا (المترجم).

(٦) نشأت في عام ٥١١م، بعد وفاة كلوفيس الأول عندما قسم أولاده الأراضي فيما بينهم. فكانت تحت حكم أسرة الميروفنجيين في الفترة من القرن السادس إلى القرن الثامن (المترجم).

(٧) شكلت أوستراسيا الجزء الشمالي من مملكة الفرنجة الميروفنجيين، التي انقسمت بعد وفاة كلوفيس الأول، حيث كانت تتكوَّن من أجزاء من مناطق فرنسا وألمانيا وبلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا المعاصرة. وكانت عاصمتها ميتز (المترجم).

(٨) كان سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية حدثًا مركزيًا في تاريخ المسيحية، وخاصةً الكنيسة الموجودة في روما (المترجم).

عندما سافر إلى روما في ديسمبر سنة 800م وذلك بعد حوالي ثلاثة عقود من الحكم، توجَّه للدفاع عن سلطة ليو الثالث[٩] باعتباره "بابا". وكردٍّ للجميل، قام نيافته بتتويجه إمبراطورًا للرومان في يوم عيد الميلاد لسنة 800م. وقد أثار ذلك إزعاج الإمبراطورة إيرين[١٠] هنا في القسطنطينية، التي بدورها لقَّبت نفسها بالإمبراطور وليس الإمبراطورة، واعتقدت أن اللقب من حقِّها ومِلك لها.

ومثل إمبراطورية شارلمان، كانت الأندلس في أغلبها نتاجَ آلة حربية. فقد ظهر الإسلام في الجزيرة العربية منذ القرن السابع ميلادي، منتشرًا بسرعة مذهلة في جميع أصقاع المعمورة.

بعد وفاة النبي في عام 632م، تمكَّن العرب في غضون ثلاثين عامًا فقط من هزيمة الإمبراطوريتين الكبيرتين في الشمال: بقايا روما في بيزنطة، والإمبراطورية الفارسية التي وصلت عبر آسيا الوسطى إلى الهند.

ومع إمساك العائلة الأموية بزمام الأمور، أخذت في التوسُّع تدريجيًّا، فاتجهت سنة 661م غربًا نحو شمال أفريقيا، وشرقًا إلى حدود آسيا الوسطى. وفي أوائل عام 711م، قاد طارق بن زياد[١١] جيشًا من البربر عبر مضيق جبل طارق إلى إسبانيا[١٢]. حيث هاجم القوط الغربيين[١٣] الذين سيطروا على الكثير من مقاطعة هسبانيا الرومانية[١٤] لما يزيد عن قرنين. ومن ثمَّ وفي غضون سبع سنوات، كانت معظم شبه الجزيرة الإيبيرية تحت الحكم الإسلامي،

---

(٩) القديس ليون الثالث (٧٥٠-٨١٦): كان البابا الكاثوليكي منذ عام ٧٩٥م وحتى وفاته عام ٨١٦م. وكان تحت حماية شارلمان من أعدائه في روما؛ ولذلك قام بتعزيز موقف شارلمان بتتويجه إمبراطورًا رومانيًّا مقدَّسًا (المترجم).

(١٠) إيرين أثينا أو إيرين الأثينية (٧٥٢-٨٠٣): هو الاسم الشائع لـ"إيرين سارانتيبشينا"، وتلقَّب كذلك بـ"أغسطه"، إمبراطورة بيزنطية حاكمة من عام ٧٩٧م إلى عام ٨٠٢م. وقبل أن تصبح إمبراطورة حاكمة، كانت إيرين عقيلة إمبراطور من عام ٧٧٥ إلى عام ٧٨٠، وإمبراطورة أرملة وحاكمة من عام ٧٨٠ إلى عام ٧٩٧ (المترجم).

(١١) (٦٧٠-٧١٩م): قائد عسكري مسلم، قاد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية خلال الفترة الممتدَّة بين عامي ٧١١ و٧١٨م بأمر من موسى بن نصير والي أفريقية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. يُنسب إلى طارق بن زياد إنهاء حكم القوط الغربيين لهسبانيا (المترجم).

(١٢) قبل عبور طارق بن زياد لهذا المضيق البحري كان يُعرف باسم "أعمدة هرقل"، ولكن بعد الانتصارات التي حقَّقها ابن زياد بالأندلس صار هذا الممر يُعرف بمضيق جبل طارق.

(١٣) مملكة القوط الغربيين، هي مملكة جرمانية سيطرت على شبه جزيرة أيبيريا وعلى ما يُعرف الآن بجنوب غرب فرنسا منذ القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلادي، وهي إحدى الدول الجرمانية التي استقلَّت عن الإمبراطورية الرومانية الغربية (المترجم).

(١٤) هو الاسم الذي أطلقه الرومان على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية (المترجم).

وذلك حتى سنة 1492م، أي بعد حوالي 800 سنة، وبعدها عادت شبه الجزيرة بأكملها إلى السيادة المسيحية من جديد.

رغم ذلك، عزم الأمويون على عدم التوقف عند جبال البيرينيه[١٥]. وقد أحبطت أولى محاولاتهم لأخذ إقليم أكيتانيا في أوائل القرن الثامن. وبعد مرور ما يزيد عن العقد بقليل، عاد عبد الرحمن[١٦] - الأمير الجديد للأندلس - ليقوم بهذه المهمَّة. فوصل شمالًا إلى حدود بواتيه، الواقعة تقريبًا في منتصف الطريق الفاصلة بين جبال البيرينيه وباريس. هناك، ورغم كل شيء، وجد المسلمون مبتغاهم. ففي أكتوبر 732م، انضمَّ شارل مارتيل[١٧] - الذي أرغم قواته على السير بمحاذاة نهر الدانوب البعيد - إلى دوق أودو[١٨]، وذلك للتصدي لقوات الأمير. وفي هذا السياق، تشير رواية لاتينيَّة كتبها ناسخ مسيحيٌّ عام 754م إلى المنتصرين في بواتيه[١٩] بـ"الأوروبيين"، وهي أول استخدام مسجَّل لكلمة لاتينيَّة لسكَّان أوروبا. وقد كتبت (في قرطبة أو توليدو) في الأندلس.

في وقتٍ لاحقٍ، جعل المؤرخون المسيحيون من معركة بواتيه حدثًا تاريخيًّا مهمًّا وذا مغزى. حيث يشير إدوارد جيبون[٢٠]، في مؤلَّفه "تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"، إلى أنَّه إذا غطَّى الماوريون (السكَّان الأصليون للمغرب) مرةً أخرى المسافة نفسها التي قطعوها من مضيق جبل طارق، لكانوا قد وصلوا إلى بولندا أو المرتفعات الإسكتلندية. ويعتقد جيبون

---

(١٥) سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا، بين فرنسا وإسبانيا، وتمثِّل الحدود الطبيعية بينهما. تمتدُّ لمسافة قدرها ٤٣٠ كلم من خليج بسكاي بالمحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر المتوسط في الشرق. وأعلى نقطة بها تُسمَّى "بيكو دي أنيتو" وتعلو بارتفاع ٣٤٠٦,٢م. وهي تفصل جبال شبه جزيرة أيبيريا عن فرنسا (المترجم).

(١٦) عبد الرحمن الغافقي (-٧٣٢م ): قائد إسلامي شارك في فتح الأندلس في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، استشهد في معركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢م قرب مدينة تورز الفرنسية، وذلك بعد أن توغَّل بجيشه داخل أراضي الفرنجة حتى وصل إلى ما يُعرف اليوم بشمال إيطاليا (المترجم).

(١٧) (٦٨٨-٧٤١م): قائد عسكري فرنجي كان الحاكم الفعلي للإمبراطورية الفرنجية منذ عام ٧١٨ حتى وفاته عام ٧٤١م. حكم مارتيل - الذي كان اسميًّا ناظرًا للقصر ودوق أوستراسيا - غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع وثيودوريك الرابع ملك فرنسا (المترجم).

(١٨) (-٧٣٥م): حكم كلاً من دوقية أكيتانيا شمال نهر غارون، ودوقية غاسكونية في جنوب غرب غالة منذ ٧٠٠م، فكان نفوذ حكمه يمتدُّ من جبال الأبواب إلى نهر اللوار (المترجم).

(١٩) تُعرف هذه المعركة عند المسلمين بمعركة بلاط الشهداء.

(٢٠) إدوارد جيبون(Edward Gibbon) (١٧٣٧-١٧٩٤): مؤرخ إنجليزي، صاحب كتاب "تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها" الذي يُعَدُّ من أهم المراجع وأعظمها في موضوعه.

أنه ربما لو فاز عبد الرحمن، "فإنه سيتمُّ تعليم القرآن في مدارس أكسفورد، وقد تُظهر منابره لهذا الشعب المختون قدسية وحقيقة الوحي الذي نزل على محمَّد". وبالنسبة إليه، فإن مصير أوروبا المسيحية على المحكِّ. فبعد أسبوع من المعركة، كتب: لقد عانى الشرقيون الاضطهاد بسبب قوة ومكانة الألمان الذين - نظرًا لبأس قلوبهم وغبلاظة أيديهم - أكَّدوا الحرية المدنية والدينية لمن سيرثهم[21].

في ذلك الوقت، كان من الغريب جدًّا أن نرى في فوز شارل مارتيل انتصارًا للحرية الدينية. هذا، وقد تمَّ التسامح مع الجالية اليهودية الصغيرة المتنفذة في إيبيرية الإسبانية في الوقت الذي كان أسيادهم القوطيون المتمسكون بهرطقتهم الأريوسية لا يزالون يحكمون الرعايا الكاثوليك واليهود. لكن مع تحوُّل القوط الغربيين إلى المسيحية تدريجيًّا مع بداية سنة 589م عاد اضطهاد اليهود. وبالنسبة إليهم، فإن الفتح الإسلامي قد جلب العديد من الحكَّام الذين تسامحوا إلى حدٍّ كبير مع اليهود - فضلًا عن المسيحيين والزرادشتيين - الخاضعين لسيطرتهم في مناطق واسعة من العالم، والذين لم يكونوا موضعَ ترحيب. وخلال الفترة الأولى من الهيمنة الإسلامية، اكتشف المسيحيون أيضًا أنهم سيحصلون على الحرية الدينية، طالما أنهم (مثل اليهود) لم يسعوا إلى تحويل المسلمين أو انتقاد الإسلام. كان الخلاف مع مملكة الفرنجة، ومنذ القرن التاسع مع الإمبراطورية الفرنجية، بالكاد أكثر إثارةً. حيث كان هوس الحكَّام الكاثوليك بالأرثوذكسية الدينية أحد العوامل التي جعلت من العصور المظلمة - كما كان بترارك[٢٢] يصفها من القرن الخامس إلى القرن العاشر - مظلمةً جدًّا.

يعتبر المسجد العظيم بقرطبة أكثر التجسيدات المادية وضوحًا لحضارة العرب في إسبانيا، ولكن إنجازاتهم الفكرية كانت أكثر دهشةً. فابتداءً من عهد عبد الرحمن الأول[٢٣]، سعى الأمويون للتنافس مع خصومهم العباسيين في بغداد من أجل رفع مستوى الإنتاج الثقافي. وخلال القرون القليلة التالية، حصلت قرطبة وحدها على مئات المساجد، وآلاف القصور،

---

(21) Gibbon The Decline and Fall of the Roman Empire H. H. Milman ed. (New York: P. F. Collier & Son, 1899): 288.

(٢٢) فرانشيسكو بتاركا أو بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤م): باحث إيطالي وشاعر، وأحد أوائل الإنسانيين في عصر النهضة، ويُسمَّى أحيانًا كثيرة "أبا الإنسانية". وفي القرن السادس عشر، أسَّس بيترو بمبو نموذجًا للغة الإيطالية الحديثة على أساس أعمال بترارك وجيوفاني بوكاتشو، وخاصةً دانتي أليغييري (المُترجم).

(٢٣) أو عبد الرحمن الداخل (٧٣١-٧٨٨م): أسَّس الدولة الأموية بالأندلس سنة ٧٥٥م وحكم حتى وفاته (المترجم).

وعشرات المكتبات. وبحلول القرن العاشر، كانت هذه المكتبات تحتوي على مئات الآلاف من المخطوطات، في حين أن أكبر المكتبات في أوروبا المسيحية كان يمكن أن تتباهى بمجموعاتٍ من بضع مئاتٍ فقط[٢٤]. لقد سبقت جامعة قرطبة بولونيا، التي تُسمَّى الآن "أول جامعة أوروبية"، منذ أكثر من قرن. فقد كانت الأندلس عالمًا من المدن، وليست - مثل أوروبا - عالمًا من البلدات والمدن الصغيرة. وبحلول نهاية الألفية، كان عدد سكَّان قرطبة 90 ألفًا، أي أكثر من ثلاثة أضعاف مساحة أي بلدة في الإقليم الذي كانت تشغله مملكة شارلمان.

في تلك المدن، خلق اليهود والمسيحيون والمسلمون والعرب والبربر والقوط الغربيون والسلاف[٢٥] وغيرهم من الذين لا حصر لهم نوعًا من الغولاش الثقافي[٢٦]، وهو عبارة عن مزيج ثقافيٍّ من مجموعاتٍ متنوِّعة تتمايز عن بعضها البعض، وقد أنتج ذلك كونية "عولميَّة" حقيقية. وفي حين لم يكن هناك حاخامات أو علماء مسلمون معترف بهم في بلاط شارلمان، كان هناك أساقفة ومعابد يهودية في مدن الأندلس. كان راسموندو[٢٧]، الأسقف الكاثوليكي لإليفيرا، سفير قرطبة عند قسطنطين السابع (913-959م) في القسطنطينية، وأوتو الأول (962-973م) في آخن[٢٨]. ولم يكن حسداي بن شبروط[٢٩]، زعيم الطائفة اليهودية في قرطبة في منتصف القرن

(٢٤) يتكوَّن فهرس المكتبة الملكية - وحدها - من ٤٤ مجلدًا. في ظل حكم الحاييم الثاني (٩٦١-٩٧٦)، أفادت التقارير أن هذه المكتبة كانت تشغل أكثر من ٥٠٠ شخص ... وفي مكانٍ آخر في إسبانيا المسلمة، كان هناك ما مجموعه ٧٠ مكتبةً في القرن العاشر، والعديد منها في طليطلة. وبالإضافة إلى المكتبة الملكية، كانت هناك مكتبات في الجامعات في قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة وغيرها، وفي العديد من المساجد. وقد ازدهرت المكتبات الخاصَّة في إسبانيا المسلمة، وقيل إن قرطبة كانت أعظم سوق للكتاب في العالم الغربي في القرن العاشر. (هاريس، تاريخ المكتبات في العالم الغربي، الطبعة الرابعة [١٩٩٩]، ص٨١).

(٢٥) السلاف أو الصقالبة هم مجموعة إثنية لغوية هندو-أوروبيَّة، يتحدثون باللغات السلافية المتنوِّعة للمجموعة اللغوية البلطيقية السلافية الأكبر، وهم مواطنون في أوراسيا، ويمتدُّ انتشارهم من وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا على طول الطريق نحو الشمال والشرق إلى شمال شرق أوروبا وشمال آسيا (سيبيريا) والقوقاز وآسيا الوسطى (المترجم).

(٢٦) الغولاش في الأصل كلمة مجرية للدلالة على أكلة محليَّة تكون في شكل حساء مكوَّن من أنواعٍ مختلفة من البهارات والخضروات، وقد استعمل الكاتب هذا التشبيه للدلالة على التنوُّع الثقافي الكبير الذي كان سائدًا إبَّان الحكم الإسلامي في الأندلس (المترجم).

(٢٧) أسقف وباحث مستعرب من غرناطة، وكان أيضًا كاتبًا لخليفة قرطبة عبد الرحمن الثالث. وهو أيضًا فيلسوف وعالم في الفلك والرياضيات، ويتحدَّث اللاتينية والعربية (المترجم).

(٢٨) بالألمانية Aachen)): تقع في أقصى غرب ولاية شمال الراين - وستفاليا في غرب ألمانيا - وتبعد ٦٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة كولونيا (المترجم).

(٢٩) (٩١٥-٩٧٥م): طبيب ودبلوماسي يهودي أندلسي، ورئيس الطائفة اليهودية في الأندلس. كان راعيًا للعلوم، حيث يعتبر من الأوائل الذين وضعوا حجر الأساس للعصر الذهبي اليهودي في الأندلس. كان حسداي سفيرًا للخلفاء الأمويين في الأندلس ومبعوثهم الخاص في الدول الأجنبية (المترجم).

العاشر، عالمًا عظيمًا في الطبِّ فحسب، بل كان أيضًا رئيسًا للمجلس الطبيِّ للخليفة. وعندما أرسل الإمبراطور قسطنطين للخليفة نسخةً من ديسكوريدس دي ماتاريا ميديكا[٣٠] (Disco-rides' De Materia Medica)، تبنَّى اقتراح ابن شبروط بإرسال راهب يونانيٍّ للمساعدة في ترجمته إلى اللغة العربية. إن المعرفة التي اكتسبوها جعلت من قرطبة واحدةً من أعظم مراكز المعرفة الطبيَّة في أوروبا.

وبحلول عهد الخليفة الجديد لعبد الرحمن، الذي يحمل الاسم نفسه (عبد الرحمن الثالث) وذلك في القرن العاشر، كان هذا الأمير واثقًا من إعلان نفسه خليفةً أو ممثِّلًا للنبيِّ، وبشكل ضمنيٍّ، زعيمًا للعالم الإسلامي.

ولو لم تعمل الديانات الثلاث معًا، آخذة من التقاليد الوثنية لليونان وروما، لَما أخذ الغرب تسميته الحالية ولم يكن ليصبح ما عليه اليوم. وفي عصر يدَّعي فيه البعض أن الصراع بين ورثة المسيح والخلافة هو الصراع الحاسم، يبدو أنه من الجيد أن نتذكَّر هذا التاريخ الطويل من التعايش المثمر.

إن هذا الرسم السريع لتاريخ العلاقات بين الأوروبيين والعرب والشمال إفريقيين في مطلع الألفية الأولى من العصر المشترك، هو تذكيرٌ بالترابط الفوضويِّ بين الإسلام وبين ما نسميه الآن الغرب. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء أن يستكشف التشابه المثير للدهشة بين التاريخ الأوروبي وشمال أفريقيا والشرق الأوسط الذي حدث مع الأحلام الإمبراطورية لفرنسا وبريطانيا اللتين قابلتا القوة المتلاشية للإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وفي كلتا الحالتين، فإن ما نراه ليس تعارضًا لحضارتين متجانستين متمايزتين، بل صراعات داخل مجتمعاتٍ كان لحياتها الدينية والفكرية الكثير من القواسم المشتركة؛ جزئيًّا بسبب التفاعلات التي كنت أرسمها، والتي بدأت قبل ألف عام. أريد الآن أن أنتقل إلى محاولة شرح سبب إساءة فهمنا لهذا التاريخ الطويل من التشارك وكذلك الصراع كقصة لاثنين من الكيانات الكبيرة والمنفصلة تمامًا - الغرب والإسلام - بمجالين متمايزين لا يمكن التوفيق بينهما. وللقيام بذلك، يجب أن أرسم صورةً واضحةً عن كيف أصبحنا نفكِّر في الأوروبيين والأمريكيين الحديثين باعتبارهم الورثة الحقيقيين للحضارات الكلاسيكية لشرق المتوسط.

---

(٣٠) هي مدوَّنة طبيَّة تُعرف عند العرب بكتاب الحشائش والأدوية، تعود أصولها إلى الطبيب الشهير ديسقوريدوس فيدانيوس (٤٠-٩٠م)، وقد تُرجمت إلى العربية على يد اصطفن بن بسيل، ثم راجعها أستاذه حنين بن إسحاق (المترجم).

تتبَّعت المناهج الأكاديمية في القرن التاسع عشر جذور الحضارة وصولًا إلى اليونان القديمة، ضمن تاريخٍ من التقدُّم منذ البدايات الرائعة التي رسمها ورثة هوميروس. إن ثقافة الغرب هي عبارة عن كتلة من التِّبْر وُئِدَتْ في أرض هيلاس[٣١] أو ربما سافرت مع الإسكندر[٣٢]. لذلك من المؤكَّد أنها ذهبت إلى مصر، حيث كانت المكتبة القابعة في الإسكندرية في يومٍ من الأيام موطنها. وربما قد ترك الإمبراطور المقدوني بعض التِّبْر هناك في آسيا الوسطى، حيث يتسنَّى رؤية ذلك في تمثال غندرة[٣٣]. لكن الكنز قد أُخذ أخيرًا بكل فخر إلى روما. هناك بالطبع، كما هو الحال في جميع رحلاته، تمَّ تزيينه - على سبيل المثال - من قِبل ترنتيوس[٣٤] في القرن الثاني قبل الميلاد، وهو بالمناسبة من أعظم المسرحيين الهزليين الرومانيين الذين ولدوا في قرطاج (تونس الحالية)؛ وكذلك من قِبل أوغسطينوس[٣٥] - في مطلع القرن الخامس الميلادي حين أصبحت الإمبراطورية مسيحيةً - أسقف هيبوه المولود في طاغست (سوق أهراس الآن في الجزائر). وقد عاصر القديس أوغسطينوس أخذَ القوط الغربيين لروما، ثم استيلاء الوندال على مدينة "هيبوه" قبل وفاته بزمنٍ وجيز.

عندما انهارت روما، كان هناك صراعٌ على الكتلة الذهبية[٣٦] بين ورثة روما في أوروبا الغربية وورثتها البيزنطيين، ثم لاحقًا من قِبل المسلمين. وعليه، قد يكون من المسلَّم به حتى في أوساط المتعلِّمين أن الكتلة قد مرت في القرن التاسع إلى بغداد وبيت الحكمة، على غرار مكتبة القصر التي أُقيمت تحت حكم هارون الرشيد[٣٧]. لكنها بدأت تتجول في أوروبا الغربية مرةً

---

(٣١) دولة تقع في جنوب شرق أوروبا (اليونان اليوم)، أو رسميًّا الجمهورية الهيلينية، والمعروفة أيضًا منذ العصور القديمة باسم هِيلاس (المترجم).

(٣٢) (٣٥٦-٣٢٣ق.م)، هو الإسكندر الأكبر أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ (المترجم).

(٣٣) غندرة: مملكة هندية قديمة تقع في المنطقة الشمالية الغربية من باكستان، حول بيشاور، وشملت وادي بيشاور، وامتدَّت فيما بعد إلى كلٍّ من منطقة جلال أباد في أفغانستان الحديثة، وكذلك تاكسيلا في باكستان. وخلال الفترة الأخمينية والفترة الهلنستية، كانت عاصمتها تشار سادا، ولكن بعد ذلك تمَّ نقل العاصمة إلى بيشاور من قِبل الإمبراطور كوشان كانيشكا الكبير في عام ١٢٧ (المترجم).

(٣٤) شاعر هزلي لاتيني، ولِد في قرطاج حوالي عام ١٩٠ وتوفي في روما في عام ١٥٩ قبل الميلاد (المترجم).

(٣٥) القديس أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م): كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني ولد في طاغاست. يُعَدُّ أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. وتعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسًا، وأحد الآباء البارزين للكنيسة. (المترجم).

(٣٦) قطعة كبيرة من الذهب عُثِر عليها في ألاسكا (المترجم).

(٣٧) (٧٦٣-٨٠٩م)، الخليفة العباسي الخامس (المترجم).

أخرى بعد إعادة إسبانيا، حيث وقع تقسيمها بين المحاكم الفلمنكية والفلورنتينية وجمهورية البندقية في عصر النهضة. وقد مرت شظاياها عبر مدن مثل: أفينيون، وباريس، وأمستردام، وفيمار، وإدنبرة، ولندن. ثم أُعيد توحيدها وتجميعها معًا في أكاديميات الولايات المتحدة مثل شظايا جرَّة إغريقية.

إن قصة الكتلة الذهبية هي ما يسميه العلماء اليوم "بالجوهرَ": فالتقليد الغربي له جوهر يتمُّ تمريره من يدٍ إلى يدٍ في رحلته التاريخية. دعونا نعترف بأن هذا النوع من الأساسيات لا يزال شائعًا للغاية في حياتنا الفكرية. وكثيرًا ما نفترض أن الهويَّة المنتجة تاريخيًّا يجب أن يكون لها جوهر عابر للتاريخ. لكن هذا الأمر خطأ بكل بساطة. إذ كيف كانت إنجلترا في القرن الحادي عشر؟ خُذْ أيَّ شيء تظنُّ أنه كان مميزًا بها. ما يجعل من أي إنجليزيٍّ غير راغبٍ في مشاركة تلك الفروق. بدلًا من ذلك، ومع مرور الوقت، يرث كلُّ جيلٍ التسمية من أحد السابقين؛ ومع التسمية قد تأتي بعض الموروثات.

لكن مع فقدان الموروث أو استبداله بالكنوز الأخرى، يمكن أن تستمرَّ العلامة. وهكذا عندما يقوم جيلٌ ما بالانتقال إلى منطقةٍ كانت مرتبطةً بالهوية الإنجليزية في وقتٍ من الأوقات - أي التحركات - يجب أن نقول لـ "نيو إنجلاند": يمكن للعلامة أن تسافر حتى خارج الإقليم. كما يمكن ربط الهويَّات ببعضها البعض عن طريق الروايات، وباختصار شديد: دون الجواهر.

إن الفكرة المعاصرة للحضارة الغربية، التي تقوم على تجاوزها للجدران الأكاديمية ودخولها للثقافة العامَّة، هي على ما أظن نتاجٌ لخمس مبالغات:

**أولًا:** أعمدة مفرطة مخطئة في الحقيقة الحرفية. وتبدأ هذه المبالغة بالخطأ الأساسي الذي حدَّدته للتو: خطأ التفكير في أن التقليد يحتاج إلى تعريفٍ بواسطة شيء مشتركٍ عبر الزمن في كل لحظة من مساره، خطأ يقودنا إلى المبالغة فيما نشترك فيه مع أسلافنا. واسمحوا لي أن أسمي هذه مبالغة مكتسبة.

**ثانيًا:** نجد المبالغة المثالية، وهي نزعة (شائعة بين المثقفين خصوصًا) لرؤية ما نقوم به (أفكار، حجج، قصص، قصائد، في عبارة، ترديد الكلمات) كمؤلّف للتاريخ البشري. إن فَهْمَنا للمجتمعات التي تضع الأفكار في صميمها من المرجَّح أن يبالغ في أهمية النصوص والكتابات التي تُنشئها وترسلها. وكما قال الكاتب العبري في القرن الثاني قبل الميلاد، في

سِفر يَشُوع بن سِيراخ، في وقتٍ مبكِّر من تاريخ مثل هذا الشأن الذَّاتي: "كيف يَحصُلُ على الحكمةِ الذي يُمسِكُ المِحرَاثَ، ويَفتَخِرُ بِالمَنخَسِ[٣٨]، وَيَسُوقُ البَقَرَ، وَيَتَرَدَّدُ في أَعمَالِهَا، وحَديثُه في أولادِ الثِّيرَانِ؟"[٣٩].

**ثالثًا:** المبالغة الحتمية، التي تشير إلى أن وقع إصلاحُه هو ما يجب أن نكون عليه.

**رابعًا:** المبالغة العضوية في الدرجة التي توحَّدت بها الثقافات - في كثيرٍ من الأحيان - بتوحُّد المعطى الفكري عن طريق الأفكار، أو في أسوأ الحالات عبر فكرة الجدلية الهيغيلية.

**أخيرًا:** هناك ما أسميه "المبالغة القومية" التي تبالغ في العلاقة بين الهويات الثقافية من جهة، والهويات السياسية من جهة أخرى؛ إنها بطريقةٍ ما مثالٌ على العضوية، ولكنها مستقلةٌ بما فيه الكفاية لتستحق تسمية تميُّزها.

هذه العادات الخمس للغباء (حقُّ البكورة، والمثاليَّة، والحتميَّة، والعضويَّة، والقوميَّة) شكَّلت - على ما أظن - قدرًا كبيرًا من الحياة الفكرية الحديثة. ولذا أريد أن أبحث باختصار عن تاريخها الحديث، وأن نحثَّ أنفسنا على أن نكون يقظين في مواجهتها. ولكن ينبغي أن أقول في البداية: إنني إذ زعمت أنها مبالغاتٌ، فأنا لا أقترح بشكلٍ قاطعٍ أن نردَّ على المبالغة بنوعٍ من التبسيط: لا ينبغي لنا البتَّة التقليل من أهمية هذه الأفكار المتعلِّقة بنفوذ الماضي أو الروابط بين عناصر الثقافة أو بين الثقافة والسياسة، على حدٍّ سواء. على الأقل، من خلال نبذ حقٍّ مكتسب، لا يجب أن ننكر حقيقة أن لكلٍّ منَّا تراثه المختلف عن الآخر.

تُستخدم قصة الكتلة الذهبية لدعم المبالغات الخمس: فهي تخبرنا بأن تاريخ الغرب هو تاريخٌ من النصوص والأفكار. لأن تلك الأفكار هي جزءٌ من الجوهر الغربي الذي هو ميراثنا، فنحن ملزمون بأن نستمرَّ في العيش من خلالها؛ لأنها متحدة مع كل شيء آخر مهم في حياتنا، وأن الوحدة الثقافية للغرب هي أساسٌ للوحدة السياسية، وعقبة في علاقاتنا مع غير الغرب.

---

(٣٨) المَنخَسُ: مفرد مَنَاخِس، هي إبرة أو عصا مدبَّبة من الأمام، تُثبَّت بقبضة من الخشب أو القصدير أو أية مادة أخرى، كان يستخدمها الفلاح قديمًا وهو يحرث الأرض بالمحراث اليدوي، فكلَّما كانت الدابة التي تجرُّ المحراث تضعف حركتها وتتعب كان الفلاح يضربها من الخلف، فكانت لشدَّة ألمها تستعيد نشاطها. (المترجم).

(٣٩) الآية ٢٦ من الإصحاح ٣٨ من سفر يشوع بن سيراخ (المترجم).

يمكننا تتبُّع مصدر واحد من هذه الأفكار ليوهان جوتفريد هردر[٤٠]. ففي كتابه عن الأدب الألماني الجديد: "شظايا من عام 1767م"، قال هردر: "كل من يكتب عن أدب بلدٍ ما، يجب ألَّا يهمل لغته". تجسِّد فكرة هردر حول "روح" اللغة فكرة أن اللغة تتعدَّى كونها وسيلةً يتواصل بها المتحدِّثون. وعندما استعار توماس جيفرسون[٤١] من الحجَّة القانونية الإنجليزية فكرة الجذور الأنجلو-سكسونية للحرية الإنجليزية، ادَّعى وجود صلة مع تقليد **مجلس الأرض**[42] **ومجلس المائة**[٤٣] (the shire moot and the hundred moot)، الذي تمَّ إلغاؤه مع الفتح النورماندي. وهكذا، عندما قدَّم اللغة الإنجليزية الأنجلو-سكسونية في منهج جامعة فرجينيا - جامعة جيفرسون، التي افتتحت في عام 1819 - ذكر أن منطقه كان هرديريًّا: بقراءة "القصص والقوانين التي تركتنا في هذه اللهجة" - قال - "سوف يستوعب الطلاب لغة مبادئهم الحرة للحكومة"[44].

أضاف القرن التاسع عشر إلى الكلاسيكية الفلسفية في عصر التنوير فكرة أن التراث الغربي كان ملكًا عنصريًّا. وبما أن القرن التاسع عشر هو قرن "البيولوجيا" (وهي كلمة صاغت نفسها بنفسها بشكل كافٍ في ألمانيا سنة 1800)، فإن طبيعة الأجناس قد أصبحت مغمورةً بشكلٍ متزايدٍ في علوم الحياة الجديدة: تذكَّر أن العنوان الكامل لأعمال داروين الرائعة لعام 1859 كان: "أصل الأنواع بواسطة وسائل الانتقاء الطبيعي، أو الحفاظ على الأجناس المفضّلة في النضال من أجل الحياة".

كانت فكرة الحضارة التي أنتجها فقط سباق هندو-أوروبي أو أوروبي تتطلب نوعًا من العَمَى عمَّا يعرفه العلماء بالفعل: لم تُهمل القصة التأثير المصري في اليونانيين فقط، ولكن

---

(٤٠) (١٧٤٤-١٨٠٣م)، كاتب وشاعر وفيلسوف وناقد ولاهوتي ألماني كان والده قائد موسيقى في الكنيسة منتميًا للحركة التقوية، وقد درس هردر الطب وعلوم الدين والفلسفة في جامعة كوينغسبرغ، حيث تأثر بكلٍّ من كانط وهامان (المترجم).

(٤١) يعتبر أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، عاش ما بين عامي ١٧٤٣ و١٨٢٦م، وهو الكاتب الرئيس لإعلان الاستقلال الأمريكي، وثالث رئيس للولايات المتحدة. نادى بمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان، وكان يتحدَّث خمس لغات، وله اهتمام خاصٌّ بالعلوم، وكذلك الدين والفلسفة، حتى إنه اشتغل رئيسًا للجمعية الفلسفية الأمريكية (المترجم).

(42) The shire هي تلك الأرض المتخيلة الموجودة في روايات جون رونالد تولكين (روائي إنجليزي وهو كاتب سلسلة the Hobbits، والتي سكنها الهوبيت "سيد الخواتم")، وهم عرق يشبه البشر لكنهم من الأقزام، وقد كتب عنهم تولكين وهم عرق يشبه البشر لكنهم من الأقزام، وقد كتب عنهم تولكين "سيد الخواتم"). أما moot في سلسلة "سيد الخواتم" فهو مجلس شعبي إنجليزي قديم متمتع بسلطاتٍ سياسية وإدارية وقضائية، ومن (هذا المنطلق أقترح ترجمة "مجلس الأرض" للدلالة على الجذور (المترجم.

(٤٣) انظر تعريف the moot في الهامش السابق (المترجم).

(٤٤) Cited in Reginald Horsman's Race and Manifest Destiny: The Origins of American Racial Anglo-Saxonism (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, ١٩٨١), ١٩.

أيضًا مركزية المساهمات اليهودية في الثقافة الغربية الرفيعة. وكان الدور الرئيس للعرب في الحفاظ على التقليد الفكري الذي ربط أفلاطون بعصر النهضة، أو بشكلٍ أدقَّ، بعض الحقائق مثل تأثير الشاعر الفارسي "حافظ"[٤٥] في غوته[٤٦]. يمكننا الآن إضافة العديد من الإحراجات الأخرى التي لم يعرفها بعضهم: مثل نقل المواد والأفكار على طول طريق الحرير، أو دور الإلهام العربي والأندلسي في تشكيل الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية.

لكنْ للقصَّة أسلاف آخرون، يعودون على الأقل إلى عصر النهضة. ففي أوائل القرن الرابع عشر، تحدَّث بترارك - كما ذكرت سابقًا - عن العصور المظلمة التي سبقته في سعيها لإعادة إرساء تقليد التعلم الذي ورثته روما عن اليونان. جعل بترارك من هوميروس[٤٧] متاحًا للحديث عن اليونانية من خلال ترجمته إلى اللاتينية. وفي نهاية المطاف، بفضل نجاح النزعة الإنسانية للنهضة، استعيدت اليونانية باعتبارها واحدةً من اللغات المستفادة في التعلُّم.

عرَّف توماس جيفرسون (الذي درس اللاتينية واليونانية وهو طفل بسبب نجاح برنامج بترارك) بعد أكثر من أربعة قرونٍ كلًّا من أثينا وروما باعتبارهما منشئتين للديمقراطية والجمهورية - فلماذا إذن بعد كل ذلك سيكون للولايات المتحدة كابيتول في عاصمتنا؟ وكان يدَّعي انتماءه إلى الكتلة الذهبية. هذا، وقد ادَّعى أفلاطون وأقرانه أن الإرث المصري مستوحى - بالتأكيد كما كان يظن الإسكندر - من معاني القوة والعظمة لحضارة الفراعنة وتاريخها القديم؛ على غرار إعلان الرومان أنفسهم الورثة الثقافيين للإغريق. إنها واحدةٌ من أقدم الإيماءات في العالم.

يرى الكثير من الحداثيين أن العمل على الحضارة الغربية يكون من خلال تصوُّر أساسيات الشروط التي يذكرها هردريان عن حضارات الماضي - اليونان وروما، وعصر النهضة بإيطاليا، والإصلاح الألماني - ومن ثمَّ مطالبة الأوروبيين المعاصرين وأمريكا الشمالية بما هو أفضل في

---

(٤٥) شمس الدين محمد حافظ الشيرازي (٧٢٥-٧٩٢): من أشهر الشعراء الغنائيين الفارسيين، لُقِّب بحافظ لحفظه القرآن بقراءاته الأربع عشرة، له أشعار
بالفارسية والعربية، وتُرجمت أعماله إلى العديد من لغات العالم.

(٤٦) يوهان فولفغانغ فون غوته (١٧٤٩-١٨٣٢م): أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثًا أدبيًا وثقافيًا ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية (المترجم).

(٤٧) (على الأرجح في القرن السابع قبل الميلاد): شاعر ملحمي إغريقي أسطوري، يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين: الإلياذة والأوديسة (المترجم).

الحياة الروحية والثقافية والفكرية، من تلك الشعوب السابقة. وهربًا من الالتباسات التي تأتي مع هذه الصورة للغرب، نحتاج أولًا إلى الخروج من إطار القومية الحديثة، وهو الإطار الذي ساعد هردر على وضعه.

هذا صعب للغاية. حيث يعيش الجميع تقريبًا، في كل مكان اليوم على الكوكب، مع صورة للعالم الذي يكون فيه من الطبيعي بقدر الإمكان أن ينقسم العالم إلى بضع مئاتٍ من الدول القومية[٤٨]. لكن الحقيقة، بالطبع، هي أن الفكرة والممارسة تطوَّرتا ببطء خلال القرون القليلة الماضية. فقد أنتج صلح ويستفاليا[٤٩] وإعادة تنظيم أوروبا في القرون اللاحقة عالَمًا بالكاد يكون فيه لأيِّ دولة قومية أيُّ تماثلٍ مع الصورة التي رسمها هردريان للأمَّة أحاديَّة الثقافة المتجانسة التي تعيش في ظلِّ حكومةٍ واحدة. تلك الدول القليلة التي تتلاءم مع شيء كهذا عادةً ما تكون قد أُجبرت عليه خلال قرنين من الصراع المدني العنيف: الأمَّة المتجانسة هي النتيجة، وليست الشرط المسبق للدولة الحديثة. لقد أعمتنا المبالغة في القومية والعضوية حول الأمَّة عن كل هذا.

قام يوجين فيبر[٥٠] بتدريس جيلٍ من طلاب التاريخ الفرنسي في أواخر عام 1893م، في حين ما يقرب من ربع المواطنين الفرنسيين - البالغ عددهم في ذلك الوقت 30 مليونًا - لم يتقنوا اللغة الفرنسية: هذا كثير بالنسبة إلى روح اللغة[51]. ما الذي يجعل من فرنسا فرنسيةً؟ وأيًّا كان ما ستقوله من قبيل: اللغة، ومؤسسات الدولة، والمطبخ، ولائكية الجمهورية، والإمبراطورية، والتقليد الكاثوليكي؛ لم يكن أيٌّ منها ليمثِّل إجابةً رائعةً جدًّا. فالسؤال نفسه يفترض جوابًا مسبقًا، وقد ازدادت الأمور سوءًا بالنسبة إلى آفاق القصة العضوية منذ نهاية الإمبراطورية الفرنسية. حيث توصَّل كثير من الناس إلى لغتهم، وأكلاتهم، ودينهم، وعلاقتهم بالإمبراطورية، وذلك ليس فقط من خلال علاقتهم بفرنسا ذات الشكل السداسي.

---

(٤٨) ١٩٢ عضوًا بالأمم المتحدة بالإضافة إلى الفاتيكان وتايوان وفلسطين والصحراء الغربية، ما عدا المملكة المتحدة بالإضافة إلى إنجلترا وإسكتلندا وويلز وأيرلندا الشمالية. (إذا كنت تعتقد أن الأمم المتحدة تضمُّ ١٩١ عضوًا، فإنك لم تلاحظ انضمام الجبل الأسود في يونيو من هذا العام، بعد انفصالها عن صربيا).

(٤٩) اسم عام يطلق على معاهدتي السلام اللتين دارت المفاوضات بشأنهما في مدينتي أسنابروك ومونستر في ويستفاليا، وتمَّ التوقيع عليهما في ١٥ مايو ١٦٤٨ و٢٤ أكتوبر ١٦٤٨، وكُتبتا باللغة الفرنسية (المترجم).

(٥٠) (١٩٢٥-٢٠٠٧): مؤرخ وأستاذ جامعي أمريكي، ولد في بوخارست، وكان عضوًا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، توفي عن عمر يناهز ٨٢ عاماً، بسبب ورم البنكرياس (المترجم).

(51) See Eugen Weber "Who Sang the Marseillaise," in My France. Politics, Culture, Myth. (Cambridge, MA: Belknap Press, 1991), 92-102.

وتناضل ألمانيا مع التركات السياسية المتميزة من نصفين، تفصلها بعد أقل من قرنٍ من تحول ألمانيا إلى دولة قومية - كالكنيسة الألمانية - في نهاية الحرب الفرنسية البروسية[٥٢]. تمَّ توحيد إيطاليا من قِبل ملوك آل سافوي[٥٣] في منتصف القرن التاسع عشر، ولكنها - مثل فيبر فرنسا - تحتوي على مجموعة كبيرة ومتنوِّعة من اللهجات غير المفهومة بشكل متبادل. حتى الآن تعترف إيطاليا بعشرين لهجةً إقليمية، وتعترف بوجود أقلياتٍ صغيرة تتحدَّث الألبانية واللَّادينية[٥٤] والفريولية[٥٥] واليونانية والأكستانية[٥٦] والسودترولية[٥٧]، بالإضافة إلى متحدثين عن الإرث الصومالي والإثيوبي وغيره من الإمبراطوريات. ومن المعتاد وصف إصدار اللغة التي يتمُّ تدريسها في المدارس والمطبوعة في معظم الصحف باسم " اللغة التوسكانية في الفم الروماني".

إذا كانت ولايات أوروبا الغربية - حيث تطورت أيديولوجية هيردريان - لا تتناسب مع قالب الدولة القومية العرقية، فمن النادر أن تجد أي شيء مثله في أي مكانٍ آخر. الهند والصين ونيجيريا، لكلٍّ منها عشرات اللغات والمجموعات العرقية. في حين لا تعتبر الولايات المتحدة - حيث يتحدَّث معظم الناس اللغة الإنجليزية - مكانًا يمكن وصفه بشكلٍ معقولٍ - شأن رابطة الدراسات الأمريكية - على أنه يمتلك ثقافة وطنية واحدة. فكل ما يُقال عادة إنه أمريكي - من ماكدونالدز إلى هوليوود الرأسمالية الاستهلاكية - موجودٌ في مكانٍ آخر كذلك، وهي في جميع الأحوال لا تحظى بتقدير كبير من قِبل أعداد كبيرة من الأمريكيين. لا يوجد شكٌّ في المرشحين للدول الهيرديرية: سأقدم لكم اليابان، حيث 99٪ من السكَّان يعرِّفون

---

(٥٢) وقد فعلت ذلك بالطبع من دون وجود جزء كبير من الأراضي التي تتحدَّث اللغة الألمانية إلى حدٍّ كبير، وهي النمسا، ومن دون أن يشرع النازيون في العديد من المتحدثين باللغة الألمانية في الإمبراطوريتين الروسية والنمساوية المجرية.

(٥٣) سَفُويَا: سلالة ملكية أوروبية حكمت في عام ١٠٠٣م أراضي مملكة بورغونيا، حيث أُقطعت كونتية سافويا التي رُقيت إلى دوقية في القرن الخامس عشر. ومن خلال التوسُّع التدريجي، نمت الأسرة في السلطة من حكم مقاطعة صغيرة في جبال الألب شمال غرب إيطاليا إلى الحكم المطلق لمملكة صقلية في عام ١٧١٣ حتى عام ١٧٢٠، وقادت الأسرة توحيد إيطاليا في عام ١٨٦١، وحكمت مملكة إيطاليا من عام ١٨٦١ حتى عام ١٩٤٦ (المترجم).

(٥٤) لغة ريتو-رومانسية مستخدمة في جبال الدولوميت في شمال إيطاليا في المناطق الحدودية لأقاليم ترينتينو ألتو أديجي وفينيتو. ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفريولية والسورسلفية والرومانش السويسرية (المترجم).

(٥٥) لغة رومانسية تنتمي إلى العائلة الريتية، ويُتحدَّث بها في منطقة فريولي في شمال شرق إيطاليا. أطلق عليها أحيانًا اسم اللادينية الشرقية؛ لأنها تشترك معها في الجذور نفسها. (المترجم).

(٥٦) لغة لاتينية يُتحدَّث بها في الثلث الجنوبي لفرنسا، والوديان الأكستانية في إيطاليا، ووادي أران في إسبانيا، وموناكو. لها عدَّة لهجات في: أوفيرني، وغاسقون، ولانغدوك، وليموزين، وبروفانس، وجبال الألب (المترجم).

(٥٧) إحدى اللهجات الإيطالية. (المترجم).

أنفسهم بأنهم يابانيون[٥٨]. وعلى الرغم من ذلك، تذكَّر أن الخطَّ الخاصَّ بهم هو الصينية، أكبر دياناتهم هندية، وهناك خمس عشرة لغة يابانية، بما في ذلك لغة الإشارة اليابانية، معترف بها من قِبل علماء الأعراق. إلى حدٍّ كبير، لا تعيش في دول أحادية الثقافة أو أحادية الدين أو أحادية اللغة أو القومية؛ وإلى حدٍّ كبير، لا يعيشون أبدًا.

باختصار: بينما أصبحت الجنسية - للأسوأ من ذلك - سمةً مركزيةً بشكلٍ متزايدٍ لهويات الرجال والنساء المعاصرين، فإن محتوى الجنسية - ما تمثله بالنسبة إلى كل مواطن - هو نتيجة العمل الثقافي وليس القواسم المشتركة الطبيعية الموجودة مسبقًا. أريد التأكيد - على أن أكون مقتنعًا - بأن نقول "لا" للمثالية والعضوية والحتمية حول الأمَّة.

لقد أوجد حديث هيردر عن روح الأمَّة صورةً تمخَّضت فيها جميع جوانب حياة شعبٍ تشترك في لغةٍ ذات جوهر مشترك. إنها مسؤولة عن عضويته. لإدانته من الإجماع على التوضيح. بقايا هذه الفكرة في حديثنا العادي في كل مكان.

إنها مبنيَّةٌ على فكرة أن الحضارة الغربية عبارة عن تراثٍ مشتركٍ ومتكاملٍ. عرَّف السير إدوارد بيرنت تايلور[٥٩] "الثقافة" في عام 1871 على أنها تلك الكلية المعقَّدة التي تشمل المعرفة، والعقيدة، والفنون، والأخلاق، والقانون، على غرار الجمارك، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان كعضوٍ في المجتمع. إن الثقافة التي تعلمناها تتلاءم مع بعضها البعض مثل بانوراما، يتمُّ تكوين كل عنصر بشكل مناسبٍ ليشغل مكانًا معينًا، كل جزء أساسي ليعطي معنى للكل.

إذن، لنفترض أننا سنتخلَّى عن النزعة العضوية من هذا النوع. ثم بعدها يمكننا استعارة صورة أكثر عالمية، حيث يتمُّ فصل كل عنصر من عناصر الثقافة - من الفلسفة أو المطبخ إلى نمط الحركة الجسدية - من حيث المبدأ عن الآخرين. يمكنك حقًّا المشي والتحدُّث مثل

---

(٥٨) أكثر من مليون شخص ذوي أصول يابانية يعيشون في مدينة ساو باولو البرازيلية يفوق عدد السكان القانونيين غير اليابانيين الذين يعيشون بين ١٢٣ مليون ياباني.

(٥٩) السير إدوارد بيرنت تايلور (١٨٣٢-١٩١٧م): أنثروبولوجي إنجليزي، ومؤسس علم الأنثروبولوجيا الثقافية. ساعدت دراساته على تحديد مجال الأنثروبولوجيا وتطوُّر الاهتمام بهذا العلم. كان أستاذًا للأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد. ومن أهم كتبه: "الثقافة البدائية"، و"الأنثروبولوجيا". وقد جسدت أفكار تايلور مذهب التطوُّر الثقافي في القرن التاسع عشر (المترجم).

أمريكي أسود والتفكير بجوار ماثيو أرنولد[٦٠] وإيمانويل كانط[٦١]، وكذلك مع مارتن لوثر كينغ[٦٢] وميلز ديفيز[٦٣]. هناك العديد من العناصر العضوية في حياتنا الثقافية - كالموسيقى، والكلمات، ومجموعة التصميم، ورقصة الأوبرا - تهدف إلى أن تتلاءم مع بعضها البعض. وهو ما يتلخَّص في كلمة اخترعها فاغنر[٦٤] عبرَّ عنها بقوله: "بعمل فنيٍّ متكامل". ولكن لا يوجد حفرة كبيرة تُسمَّى ثقافة لها القدرة على أن توحِّد عضويًّا كل هذه الأجزاء.

يمكن أن يعيش كافكا[٦٥] وميلز ديفيس معًا بالسهولة نفسها مثل كافكا وشتراوس[٦٦]. ما هو صحيح في ثقافة النُّخب صحيح في المطبخ أيضًا: لقد قام البريطانيون بتبديل الأرز والكاري للحصول على السمك والبطاطس. سوف تجد أسلوب الهيب هوب[٦٧] في شوارع طوكيو. وقد قاومت إسبانيا - في قلب الغرب - الديمقراطية الليبرالية لجيلين بعد أن انطلقت من الهند واليابان - في الشرق، الذي من المفترض أنه موطن الاستبداد. وحتى

---

(٦٠) (١٨٢٢-١٨٨٨م): شاعر وناقد وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي. لم يقتصر على الأدب؛ إذ تنوَّعت كتاباته بين الأدب والتاريخ والسياسة واللاهوت والعلم والفن. وقد انصبَّ تركيزه في أعماله على وضع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين (المترجم).

(٦١) (١٧٢٤-١٨٠٤م): فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر. عاش كل حياته في مدينة كوينغسبرغ في مملكة بروسيا. وكان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة، وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية (المترجم).

(٦٢) (١٩٢٩-١٩٦٨م): زعيم أمريكي من أصولٍ إفريقية، وناشط سياسي إنساني، ومن المطالبين بإنهاء التمييز العنصري ضد السود في عام ١٩٦٤م. حصل على جائزة نوبل للسلام، وكان أصغر من يحوز عليها (المترجم).

(٦٣) (١٩٢٦-١٩٩١م): كان عازفًا لموسيقى الجاز، وعازف بوق، وقائد فرقة، وملحنًا أمريكيًّا. يعتبر على نطاقٍ واسعٍ أحد أكثر الموسيقيين تأثيرًا في القرن العشرين. وكان - مع مجموعاته الموسيقية - في طليعة العديد من التطوُّرات الرئيسة في موسيقى الجاز (المترجم).

(٦٤) (١٨١٣-١٨٨٣): مؤلف موسيقي وكاتب مسرحي ألماني، ولد في لايبزغ-ألمانيا سنة ١٨١٣، وتوفي في البندقية-إيطاليا سنة ١٨٨٣. وهو الابن الأصغر لعائلة مكوَّنة من تسعة أولاد. النصف الأول من العصر الرومانسي في الموسيقى سيطر عليه بيتهوفن، والنصف الثاني ريتشارد فاغنر (المترجم).

(٦٥) فرانس كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤م): كاتب تشيكي يهودي كتب بالألمانية، رائد الكتابة الكابوسية. يُعَدُّ أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة، وتُصنَّف أعماله بكونها واقعية عجائبية (المترجم).

(٦٦) كلود ليفي ستروس (١٩٠٨-٢٠٠٩م): عالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي، يُعَدُّ من أهم البنيويين المعاصرين، وأكثرهم شهرةً، بل إن البنيوية ترتبط باسمه ارتباطًا مباشرًا، وهذا ما جعل الباحثين يطلقون عليه عددًا من الألقاب التي تشير إلى مدى تأثيره وتأثره بالبنيويين والبنيوية عمومًا؛ فلقِّب بعميد البنيويين، أو شيخ البنيويين (المترجم).

(٦٧) أحد أنواع الموسيقى والثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهو يعتبر حركة ثقافية للسود أو الأمريكيين الأفارقة. نشأ الهيب هوب منذ عام ١٩٧٠ كردٍّ فعلٍ على ما تعرضوا له من عنصرية، وكنوعٍ من التعبير عن النفس ضد المشاكل المجتمعية، مثل الفقر والبطالة والعنصرية والظلم، ليصبح ثقافةً وفنًّا مستقلًّا فيما بعد (المترجم).

المـيراث الغـربي لجيفرسـون - الحريـة الإثنيـة، والحريـة الأنجلوسكسـونية - لم يمنـع الولايـات المتحـدة مـن إنشـاء جمهوريـة للرقيـق.

لهـذا السـبب نحـن في أوروبـا وأمريـكا الشـمالية لا نحتـاج لفكـرة الغـرب لتقودنـا إلى الأمـام. لمـاذا لا نملـك سـوى الخيـارات وليـس المسـارات التـي تتبعهـا القـدَرُ الغـربي.. بعيـدًا عـن كـون الـشرق شرقًـا والغـرب غربًـا واللذيـن لـن يلتقيـا أبـدًا، فقـد كان لكليهـما علاقـاتٌ متشـابكة - كـما رأينـا في تاريـخ الأندلـس - حيـث يتـمُّ رسـم الحـدود الوهميـة. وأجـرؤ عـلى القـول: إنـه إذا كان بإمـكان فكـرة الثقافـة الغربيـة أن تضلِّلنـا، فكذلـك يمكـن أن تفعـل فكـرة ثقافـة فريـدة للإسـلام.

أولئـك الذيـن يريـدون أن تقـدِّم لهـم فكـرة الغـرب بعـض التضامـن ضـد الإسـلام الراديـكالي، يبحثـون في المـكان الخطـأ أيضًـا. مـا نحتـاج إليـه هـو حـدود مختلفـة: الحـدود بـين أولئـك الذيـن سيتشـاركون مـع الغربـاء ويتعايشـون مـع اختلافاتهـم وبـين أولئـك الذيـن لا يهتمـون بالاختـلاف ولا يريـدون مشـاركته مـع الغربـاء. وهـذا الانقسـام موجـود داخـل "الغـرب"، كـما هـو مُسْـتبطَنٌ في عـالم السُّـنة والشـيعة، ومختلـف الطوائـف الأخـرى - العلويـين والإسـماعيليين والإباضيـة والـدروز وغيرهـم - مـن الـذي يشـكِّلون العـالم الإسـلامي. إنـه الفـرق بـين المنظـور العالمـي المَـدرِك لوجـوده، ولقـوة تلوثنـا المتبـادل بيننـا، والعالميـة المضـادة التـي تهـدف إلى إيجـاد نقـاء خيـاليٍّ ومسـتحيل.

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩

All rights reserved © 2019